وفي كل موضع من هذه المواضع يأتي الحديث حسب ما يناسب السياق.

ـ فجاءت القصة في سورة البقرة في سياق تذكير الناس بالنعم الدالة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى نهايته، وبيان كفرهم وجحودهم، حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]، وبيان ما خلقه الله تعالى لهم في هذه الحياة ليتمتعوا به، بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة] ثم جاءت قصة آدم وفيها تكريم الله للإنسان باختيار آدم خليفة في الأرض، وتعليمه الأسماء التي لا تعلمها للملائكة، فهو استمرار في التذكير بنعم الله عليهم، والتناسب بين التذكير بابتداء خلقهم وابتداء خلق أبيهم آدم عليه السلام.

ـ ووردت هذه القصة في سورة الأعراف في سياق الدعوة إلى قبول دعوة الأنبياء، بالتخويف بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف] ثم بالترغيب والتنبيه على كثرة نعم الله على الخلق، مع قله شكرهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف]، وذكرت من نعم الله تعالى: خلق الإنسان وتصويره، وكل ذلك يوجب الطاعة والإيمان، ولكن يتعرض الإنسان لوسوسة الشيطان وإغوائه، وهذا يقود إلى الجحود، وعدم الشكر، ولذا أسهبت القصة في موقف إبليس العدائي من الإنسان، وأخذ العهد على نفسه لإغواء بني آدم.

ـ وجاءت قصة آدم في سورة الحجر في سياق الدلائل على وجود الله تعالى، من خلق السماوات والأرض، ومشاهد الرياح اللواقح، والحياة والموت، والحشر والنشر، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ

إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر]، ثم بيَّن تعالى أن خلق الإنس من الطين والجن من النار من دلائل وجوده وقدرته وتوحيده، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر]، ثم ذكر تعالى قصة آدم وبدأها بقوله تعالى للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر]، إلى آخر الآيات، ففيها الدلالة على قدرة الله تعالى وحده في خلق الإنسان الأول من غير أبوين، فالقصة فيها إشارات ومعان، أهمها:

تكريم الله تعالى للإنسان بخلقه وأمر الملائكة بالسجود له، وإباء إبليس قائلاً: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٣٣]، متكبراً، ومعللاً بأنه خير منه كما في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]، ثم بيَّن تعالى خطورة عصيانه، بالترهيب ثم الترغيب.

وجاءت قصة آدم في سورة الإسراء في سياق الكبر والحسد، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]، هذه الحالُ من المشركين مع النبي ﷺ، بعد فتنتهم بالرؤيا ليلة الإسراء، وبالشجرة الملعونة، فكفر من كُتب عليه الكفر، وصدَّق من كُتب له الإيمان، شابهت ما حصل في قصة آدم عليه السلام وإبليس حيث حمله الكبر والحسد على عدم السجود، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]، ومن المناسبة بينهما أيضاً ـ والله أعلم ـ أنه لما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠]، بين سبب هذا الطغيان، وهو قول إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

وهذا يُقَرر أن تكرار القصة في القرآن يُظهر جوانب مختلفة منها في كل موضع، بتحقيق هدف آخر، وتنويع معجزٍ للعرب، وبيانٌ لما صاحب القصة

من أحداث مهمَّة، وأن النظر إلى سابق القصةِ ولاحقها يُبين حقيقة تكرار القصة وإعادتها، فالقرآن تنزيل من حكيم حميد، يذكر في كل مكان ما يناسب الحال، فسبحان الحكيم العليم.

ومن الأمثلة:

ذكر الله قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة، ومنها:

سورة الأعراف، والتوبة، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والمؤمنون، والشعراء، والصافات، والقمر، وسورة نوح كاملة.

وهي أول قصص الأنبياء عادة عند تكرار قصصهم، ويتلوها من بعده من الأنبياء في سياق متناسب مع موضوع السورة ومقاصد الآيات.

ومن تتبع قصص الأنبياء في القرآن وجد أن الأصل فيها التكرار، ولذا أجاب العلماء عن أسباب عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام.

قال ابن عطية: «وسورة يوسف لم يتكرر من معناها في القرآن شيء كما تكررت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حُجة على من قال في هذه: لو كُررت لفترت فصاحتها»[(١)].

وأذكر على وجه الإيجاز أهم الأسرار لعدم تكرار قصة يوسف عليه السلام:

١ ـ أهمها أنها أدت الغرض المقصود من إيرادها بالمرة الواحدة، لاختلافه عن القصص الأخرى[(٢)].

قال السيوطي: «وهو أقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله، فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب، كما حل على المكذبين؛ ولهذا قال تعالى في آيات: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٩.

[الأنعام: ٦]، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح»[١].

٢ ـ أن هذا من أوجه الإعجاز، فقصص الأنبياء تكرر تارة، وقصة يوسف وبعض القصص لم تكرر، فالتحدي للعرب في الأمرين.

قال الباقلاني: «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً به ومكرراً»[٢].

أي: إن العلماء نبهوا على عجز العرب عن الإتيان بمثل قصص القرآن المكرر وغير المكرر[٣].

وقال القرطبي: «قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل»[٤].

٣ ـ وأضاف بعضهم ما فيها من الحديث عن النساء، وشؤونهن مبنية على الستر، وعدم التكرار[٥].

ولما تأملت في تكرار قصص الأنبياء تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن تكرار القصص في الظاهر يدعو إلى تأمل المعاني الجديدة في كل موضع؛ لأن فيه تكراراً لأجزاء القصة المراد بيانها، وبه تتكامل فصول القصة، ويتبين الموقف من جميع جوانبه.

ولا يخلو تكرار قصة من حاجة إليه، أو زيادة فائدة، أو تأسيس معنى جديد.

قال ابن تيمية: «والملائكة أَرسلوا الحجارة من السماء على قرى قوم

---

(١) الإتقان ٢/١٤٩، ١٥٠.
(٢) إعجاز القرآن ٦١.
(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ١/٥٦.
(٤) تفسير القرطبي ٩/١١٨.
(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢/١٤٩.

لوط، وقد ذكر الله قصتهم في مواضع من القرآن، في سورة هود، والحجر، والعنكبوت، وفي كل موضع يذكر نوعاً مما جرى»[١].

٢ ـ وجود الارتباط الدقيق بين القصة وسياق الآيات، فقد يستدعي السياق الاستشهاد بجزء من القصة ليكون شاهداً أو عبرة في الموضوع الذي جيء بالجزء من القصة لأجله، وذلك من خلال النظر إلى سابق القصة ولاحقها، فكلما تكررت كان هناك جديد تؤديه؛ لاختلاف الغاية التي تساق من أجلها، فقد يستشهد بالقصة الواحدة في عشرات المواضع؛ لأن فيها لكل مناسبة ما يصلح أن يكون شاهداً أو عظة أو عبرة، فتذكر بعض معانيها الوافية في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

قال البقاعي: «المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى، أو بعضه، ولم يكن هناك مناقضة، فإن القصة كانت حين وقوعها بأوفى المعاني الواردة، ثم إن الله تعالى يُعبِّر لنا في كل سورة تُذكر القصة فيها بما يناسب ذلك المقام في الألفاظ، عما يليق من المعاني، ويترك ما لا يقتضيه ذلك المقام»[٢].

٣ ـ أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعَجِز القوم عن الإتيان بمثله، وكما تحداهم بتنوع أساليبه، وعجزهم، تحداهم بأسلوب واحد، كتكرار القصة؛ إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم، أو أي عبارة، والله جل وعلا وحده هو القادر على ذلك[٣].

قال الباقلاني: «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً ومكرراً»[٤].

وكل قصة كررت أُلبِست زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً، وإجمالاً وبياناً، ولم يحدث مللاً ولا سآمة؛ وكل ذلك فيه الدليل على بلوغ القرآن أعلى مراتب البلاغة.

---

(١) الرد على المنطقيين ٤٩٤.
(٢) نظم الدرر ١/ ١٠٤.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧.
(٤) إعجاز القرآن ٦١.

وفي تكرار القصة تكامل أجزائها، وتعبيراتها، في أسلوب منتظم جميل.

وفي تكرار القصص جذب النفوس إلى سماع القصة كاملة لما جُبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة[١].

٤ ـ وفي تكرار قصص الأنبياء تمكين العبرة والعظة في النفوس، إذ التكرار ينبه الغافل، ويزيد إدراكاً من لم يغفل.

٥ ـ وفي تكرار قصص الأنبياء تمكين سنن الله في الكون، لتثبت النفس، ويقوى القلب، فلا يجد اليأس إليه سبيلاً، ففي قصص عقوبات الماضين المفسدين تسلية؛ لأن نفوسهم في كل زمان ومكان متقاربة، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصِّلت: ٤٣]، والله تعالى أعلم.

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٢٨.

الفصل الثالث

عادات القرآن في خطاباته

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء.
- المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس.
- المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب.

المبحث الأول

خطاب القرآن للأنبياء

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم.**
- **المطلب الثاني: نداء النبي ﷺ بوصفه.**
- **المطلب الثالث: خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته.**

المطلب الأول

نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم

عادة الله تعالى في القرآن نداء الأنبياء السابقين ـ قبل محمد ﷺ ـ بأسمائهم.

والأمثلة على هذا كثيرة منها:

١ ـ نداء الله تعالى لآدم عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

ـ وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

ـ وقال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

قال أبو حيان: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٣]، نادى آدم باسمه العلم، وهي عادة الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ

مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠]»[1].

فبيَّن أن هذه عادة الله مع أنبيائه السابقين عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ نداء الله تعالى لنوح عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

٣ ـ نداء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الصافات].

٤ ـ نداء الله تعالى لزكريا ويحيى عليهما السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢].

٥ ـ نداء الله تعالى لداود عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

---

(١) البحر المحيط ١/٢٩٨.

٦ ـ نداء الله تعالى لموسى عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف].

وقد نادى الله موسى باسمه في اثني عشر موضعاً من القرآن، وهي كما يأتي:

ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء].

ـ وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

٧ ـ نداء الله تعالى لعيسى عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومن تأمل في هذه النداءات ظَهَر له جلياً: عادةُ نداء الأنبياء بأسمائهم الصريحة.

قال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ نادى سبحانه آدم باسمه العلم كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه ما عدا نبينا حيث ناداه بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾»(١).

ومن خلال بحث هذه العادة تبين لي:

١ ـ أن النداء بالاسم المجرد لا انتقاص فيه للمنادى، ونداء الله تعالى لأنبيائه بأسمائهم أكبر دليل على هذا المعنى، وما يقع عند بعض الناس من الأنَفَة عند ندائهم بأسمائهم، إنما هو راجع لأعرافهم وعاداتهم.

قال الرضي: «فإن بعض النفوس تأنف من أن تخاطب باسمها»(٢).

والعبرة في القرآن بسياق الكلام، فقد جاء التصريح بالاسم في القرآن تشريفاً للمنادى في كثير من المواضع.

قال أبو حيان: «﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، لما كان وقت النداء شرّف بالتصريح باسمه في النداء، فقيل: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [الأعراف: ١٩]، وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرّح باسمه»(٣).

وقال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠] ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع»(٤).

٢ ـ لم يأت في القرآن العدول عن الاسم إلى الكنية إلا مع أبي لهب، وقد علل العلماء ذكر الكنية بوجوه منها: أن الاسم أشرف من الكنية.

---

(١) روح المعاني ١/ ٢٢٧.
(٢) شرح الرضي على الكافية ٣/ ٢٦٤، وينظر: الكليات ٩٥١.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٢٨١.
(٤) روح المعاني ١٦/ ٢٧٣.

قال الماوردي: «وفي ذكر الله لأبي لهب بكنيته دون اسمه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه.

الثاني: لأنه كان مسمى بعبدهشم، وقيل: إنه عبد العزى فلذلك عدل عنه.

الثالث: لأن الاسم أشرف من الكنية؛ لأن الكنية إشارة إليه باسم غيره؛ ولذلك دعا الله أنبياءه بأسمائهم»(١).

وكذا قال أبو حيان: «لأن الاسم أشرف من الكنية، فعدل إلى الأنقص؛ ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم ولم يُكْنِ أحداً منهم»(٢).

وقال القرطبي: «وإنما كناه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعان أربعة» وذكر منها: «أن الاسم أشرف من الكنية، فحطَّه الله ﷻ عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذْ لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يُكْنِ عن أحد منهم، ويدُلُّك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسمَّى ولا يكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكنية إليه؛ لتقدُّسِه عنها»(٣).

٣ ـ أن أقوام الأنبياء والملائكة نادوا الأنبياء بأسمائهم الصريحة، والسياق هو ما يُحدد الهدف من التصريح بالاسم.

ـ كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود].

ـ وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قال البقاعي: «﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: ثمود، ﴿يَـٰصَـٰلِحُ﴾ نادوه باسمه قلةَ أدبٍ منهم وجفاء»(٤)، وهذا واضح من السياق الذي ورد فيه النداء.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦٥.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٧.
(٣) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣٦.
(٤) نظم الدرر ٣/ ٥٨٤.

ـ وقال تعالى عن الملائكة مع لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود].

ـ وقال تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

٤ ـ نادى الله جل وعلا جميع الرسل على وجه الإجمال بوصف الرسالة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون].

٥ ـ لم ينادِ الله تعالى الأنبياء السابقين بوصف الرسالة أو النبوة لأن القرآن نزل بعدهم، فهو يحكي قصصهم الماضية، وفرق بين الغائب والمخاطب في أسلوب الكلام، والله أعلم.

قال الألوسي: «وربما يكون نداء سائر الأنبياء عليهم السلام في كتبهم أيضاً على نحو منه»(١).

يعني: مثل ما نودي به النبي ﷺ في القرآن، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

نداء النبي ﷺ بوصفه

لم يأت في القرآن نداء النبي ﷺ باسمه الصريح كما هي الحال مع عامة الأنبياء، وإنما جاء النداء بوصفه بالنبوة أو الرسالة، أو غيرها، تكرر ذلك ثماني عشرة مرة، **وسأورد الآيات الدالة على ذلك:**

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال].

(١) روح المعاني ٢١/ ١٤٣.

فهذا نداء للنبي ﷺ بصفة النبوة، وقد تكرر هذا النداء في ثلاثة عشر موضعاً.

٢ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٩ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢].

١١ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ﴾ [الطَّلاق: ١].

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التَّحريم].

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التَّحريم: ٩].

ونادى الله تعالى نبيه ﷺ بصفة الرسالة في موضعين من كتاب الله، وهما:

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١].

١٥ ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧].

وجاء نداء النبي ﷺ بوصفه بالمزمل.

١٦ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل].

وكذا بوصفه بالمدثر.

١٧ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر].

وكذا بوصفه بالذي نزل عليه الذكر.

١٨ ـ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ [الحجر].

ومن تأمل في نداءات النبي ﷺ في القرآن وجد أكثرها بوصف النبوة والرسالة، وهو وصف تشريف وتفضيل، ولم يأت في كتاب الله تعالى نداء النبي ﷺ باسمه مجرداً ألبتَّة.

قال الزمخشري: «جعل نداءه بالنبيّ والرسول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفاً، وربئاً بمحله وتنويهاً بفضله)[1].

وقال الرازي: «قال تعالى في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحريم: ١]، ومن بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التَّحريم: ٩]، خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه، كقوله لآدم: يا آدم، ولموسى: يا موسى، ولعيسى: يا عيسى، نقول: خاطبه بهذا الوصف ليدل على فضله

(١) الكشاف ٣/٥٢٦.

عليهم، وهذا ظاهر»[١].

وقال أبو حيان: «ونداؤه تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] هنا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مواضع، تشريف وتعظيم وتفخيم لقدره، ونادى غيره من الأنبياء باسمه»[٢].

وقد جاء النص في تأديب المؤمنين على هذه العادة، وفي موضع التأديب نفسه لم يذكر النبي ﷺ باسمه، بل استبدله بصفة الرسالة، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ففي هذا تعظيم وتوقير له عليه الصلاة والسلام مع التواضع وخفض الصوت.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ «أمرهم أن يدعوا: يا رسول الله، في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم»[٣].

وجاء التأديب أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات].

قال الفراء: «وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، يقول: لا تقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم»[٤].

وقال مكي: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، ولكن عظموه ووقروه، ونادوه بأشرف ما يُحِب أن ينادَى، قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وهذا كلُّه أمر من الله ﷻ للمؤمنين بتعظيم النبي ﷺ وإجلاله، وهو مثل قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]»[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٣.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٩٩، ٧/ ٢٠٦.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٠.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٧٠.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٦٩٨٧، وينظر: البحر المحيط ٨/ ١٠٥، تفسير القرطبي ١٦/ ٣٠٦.

وقال الرازي: «﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]، واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسماوات، . . . وأنه يُذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يُذكر في الخطب والأذان، ومفاتيح الرسائل، وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ويناديه باسم الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم، يا موسى، يا عيسى»[(١)].

وقال ابن كثير: «هذه آداب، أدَّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «وقوله هنا: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: لا تنادوه باسمه، كـ يا محمد، وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر]، مع أنه ينادي الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤﴾ [الصَّافات]، وقوله: يا ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦]، أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]»[(٣)].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٣٦٤، التحرير والتنوير ٢٦/٢١٩.

(٣) أضواء البيان ٧/٤٠٢.

وعلى هذا فعادة القرآن أنه لا ينادي النبي ﷺ باسمه المجرد.

أما في غير النداء فجاء ذكره بمثل ما ذُكر في النداء بصفة الرسالة والنبوة ونحوها.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البيِّنة].

إلا في أربعة مواضع، جاء الخبر فيها عن النبي باسمه: محمد ﷺ وهي كما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

قال الزركشي: «وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ والقصد تفضيل النبي ﷺ وما نزل عليه إذ لا يتم الإيمان إلا به»(١).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا يدل على أن باب الخبر أوسعُ من باب الطلب في التعامل مع رسول الله ﷺ.

---

(١) البرهان ٢/ ٤٦٩.

ولذلك بحث العلماء السر في النص على اسمه ﷺ في هذه المواضع.

قال الزمخشري: «فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قلت: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقينٌ لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوتَ بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]»[(١)].

وقال أبو حيان: «وحيث ذكره على سبيل الأخبار عنه بأنه رسوله، صرح باسمه فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، أعلَمَ أنه رسوله، ولقنهم أن يسموه بذلك.

وحيث لم يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النداء: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، و﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، وغير ذلك من الآي»[(٢)].

وقال النسفي: «وتصريحه باسمه في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ونحوه؛ لتعليم الناس بأنه رسول الله»[(٣)].

---

(١) الكشاف ٣/٥٢٦.
(٢) البحر المحيط ٧/٢٠٦.
(٣) تفسير النسفي ٣/٢٩٥.

❐ وخلاصة القول في هذا المطلب:

١ ـ أن نداء النبي ﷺ بوصف النبوة والرسالة إقرارٌ له بالنبوة والرسالة، وتعظيم وتشريف له عليه الصلاة والسلام.

قال ابن جزي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء فيه تكريم له؛ لأنه ناداه بالنبوة، ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم»(١).

وقال الزركشي: «ولم يقع في القرآن النداء بـ يا محمد، بل بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ تعظيماً له وتبجيلاً وتخصيصاً بذلك عن سواه»(٢).

وقال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣]، نادى سبحانه آدم باسمه العلم، كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه، ما عدا نبينا؛ حيث ناداه بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ لعلو مقامه ورفعة شأنه إذ هو الخليفة الأعظم»(٣).

٢ ـ اختص نداء النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، وفيها زيادة التعظيم والتشريف للنبي ﷺ.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه، أمور عظام وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»(٤).

وقد زكى الله تعالى نبيه ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، ومنها:

أنه جل وعلا زكاه في عقله فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النَّجم].

---

(١) التسهيل ٢/ ٣٥٦.
(٢) البرهان ٢/ ٢٢٨.
(٣) روح المعاني ١/ ٢٢٧.
(٤) الكشاف ١/ ١٢١، وينظر: الإتقان ٢/ ١٨٠.

وزكاه في صدقه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النَّجم].
وزكاه في بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النَّجم].
وزكاه في معلمه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النَّجم].
وزكاه في صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح].
وزكاه في طهره فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح].
وزكاه في ذكره فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح].
وزكاه في حلمه فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة].
وزكاه كله صلوات ربي وسلامه عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

٣ ـ في اختيار الوصف بالنبوة أو الرسالة أو غيرها المراعاة لحال السياق.

فعند التأمل في اختيار وصف النبي أو الرسول في القرآن يتبين الدقة في اللفظ حسب مواضعه.

ويؤيد هذا ما ذكره الزركشي حيث يقول: «ومن هذا النوع ـ خطاب المدح ـ الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه، كقوله في مقام الأمر بالتشريع العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي مقام الخاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التَّحريم]، ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب].

وتأمل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، في مقام الاقتداء بالكتاب والسُّنَّة، ثم قال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، فكأنه جمع له المقامين معنى النبوة والرسالة تعديداً للنعم في الحالين.

وقريب منه في المضاف إلى الخاص: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ولم يقل: يا نساء الرسول، لما قصد اختصاصهن عن بقية الأمة.

وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام، لكن مع قرينة إرادة التعميم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق: ١]، ولم يقل طلقت»(١).

٤ ـ أن عادة القرآن حتى في المواضع التي صرح باسمه في باب الخبر، اقتران الرسالة بالاسم، وهذا أمر يدل على أن ذكر اسمه من باب التعليم والبيان أنه رسول الله الذي شُرف بالنبوة والرسالة، ونزول القرآن عليه.

٥ ـ أن باب الأخبار أوسع من باب الإنشاء في ذكر اسمه مجرداً عن الوصف ﷺ.

قال ابن عاشور: «ونداء النبي عليه الصلاة والسلام بوصف النبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره، ولذلك لم يناد في القرآن بغير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التَّحريم: ٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ويجيء باسمه العلم، كقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد يتعين إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقين لهم بأن يسموه بذلك، ويدعوه به، فإن علم أسمائه من الإيمان لئلا يلتبس بغيره»(٢).

وقال ابن عثيمين: «قول: محمد رسول الله ﷺ، لا ينافي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن دعاء الرسول هنا؛ أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله.

(١) البرهان ٢/ ٢٣٩، ٢٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٤٩.

أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ، أو: اللهم صل على محمد، وما أشبه ذلك»[١].

والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته

لا يخلو الخطاب الموجهُ إلى النبي ﷺ في كتاب الله تعالى من الحالات الآتية:

الحالة الأولى: أن يقوم دليل على أن الخطاب خاصٌّ به ﷺ فهو خاص لا يشمل الأمة.

ـ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح].

الحالة الثانية: أن تأتي القرينة الدالة على العموم في خطاب النبي ﷺ فهو للعموم.

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق: ١]، فصيغة الجمع في قوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ تدل على عموم الخطاب للأمة.

قال الزركشي: «افتتح الخطاب بالنبي ﷺ، والمراد سائر من يملك الطلاق»[٢].

وقال أبو السعود: «تخصيص النداء به عليه الصلاة والسلام مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتشريفه عليه الصلاة والسلام، وإظهارِ جلالة منصبه،

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٩/ ٣٢.
(٢) البرهان ٢/ ٢١٨.

وتحقيقِ أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم، وتغليبه عليهم، لا لأن نداءه كندائهم»[١].

الحالة الثالثة: أن لا يوجد دليل على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ خاص به، أو عام له ولأمته، وهنا محل البحث في هذه العادة:

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ [هود: ١١٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب]، ونحو ذلك.

وهذه مسألة أصولية مشهورة تكلم فيها الأصوليون[٢].

قال بعض الشافعية[٣] وغيرهم[٤]:

هو خاص بالنبي ﷺ حتى يقوم دليل على العموم.

واستدلوا: بأن اللفظ خاص من حيث الوضع اللغوي، فيبقى على خصوصه حتى يأتي الدليل على نقله من الخصوص.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: العدة ١/ ٣١٨، المحصول ٢/ ٣٧٩، البرهان للجويني ١/ ٢٥٠، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٢، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢١٨.

(٣) ينظر: الإحكام للآمدي ٢/ ٢٧٩، المستصفى ١/ ٢٤١.

(٤) كالمعتزلة ومن وافقهم. ينظر: المعتمد ١/ ١٤٨.

وقال الجمهور من الحنفية[١]، وبعض المالكية[٢]، وبعض الشافعية[٣]، وهو قول الحنابلة[٤]:

إن خطاب النبي ﷺ يدل على العموم حتى يقوم دليل على الخصوصية.

قال ابن تيمية: «ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمر نبيه بأمر، أو نهاه عن شيء، كانت أمته أسوة له في ذلك، ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك»[٥].

ـ واستدلوا: بالآيات الدالة على الاقتداء بالرسول ﷺ واتِّبَاعه.

كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وغيرها كثير، مما أوجد عادة شرعية تُحْمَل عليها خطابات الشرع.

ـ واستدلوا: بأن عادة العرب توجيه الخطاب لكبير القوم والمراد كلهم، والقرآن نزل بلغة العرب.

ـ واستدلوا: بأن ما اختص به النبي ﷺ في الشريعة جاء بلفظ التخصيص.

كقوله تعالى في الواهبة نفسها: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ولو كان حكم الخطاب خاصاً به لم يحتج إلى التخصيص في هذه الآية[٦].

---

(١) ينظر: التقرير والتحبير ١/ ٢٢٤.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٢٧٠.

(٣) ينظر: البرهان للجويني ١/ ٢٥٠، تفسير الرازي ٢٥/ ١٨٤، نهاية السول ١/ ٣٩٠.

(٤) ينظر: العدة في أصول الفقه ١/ ٣١٨، روضة الناظر ٢/ ١٠٠، المسودة ١/ ١٣٤، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢١٨.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٢٢.

(٦) ينظر: مذكرة أصول الفقه ٢٤.

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، فلو كان منفرداً بما يتوجه إليه من الشرع، لم يكن لتخصيصه فائدة(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فالخطاب خاصٌّ بالنبي ﷺ، وقد صرح بعده بعمومه لجميع المؤمنين في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، ولو كان حكم الخطاب يختص بالنبي ﷺ لم يصح التعليل بالعموم.

ـ وقد دل على هذا القول استقراء آيات القرآن.

قال الشنقيطي: «وأما الخطاب الخاص بالنبي ﷺ في نحو قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد دلت النصوص الشرعية على شمول حكمه للأمة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية [الأحزاب: ٢١].

وقد علمنا ذلك من استقراء القرآن العظيم حيث يُعَبّر فيه دائماً بالصيغة الخاصة به ﷺ ثم يشير إلى أن المراد عموم حكم الخطاب للأمة»(٢).

وبعد استقراء أقوال العلماء في المسألة وتطبيقها على الفروع تبين لي أنه لا خلاف بين القولين في العمل؛ فالجميع متفق على أن خطاب الواحد لا يطلق على الجماعة في اللغة، وكذلك متفقون أن الوقائع الشرعية الخاصة التي استدل بها أصحاب القول الأول عُدِّي حكمها إلى الأمة مع نبيها ﷺ، ومحل النزاع في العرف الشرعي(٣).

قال الطوفي: «وكأن الخلاف لفظي...» ثم قال: «وحينئذٍ يكون التقدير: أن اللغة تقتضي أن الخطاب لواحد معين يختص به، ولا خلاف فيه بينهم، والواقعة الشرعية الخاصة، إذا قام دليل على عمومها عمت، ولا

(١) ينظر: العدة في أصول الفقه ١/ ٣٢٥. (٢) أضواء البيان ١/ ٣٧٧.
(٣) ينظر: العدة ١/ ٣٣٠، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٨، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٢١.

خلاف أيضاً فيه بينهم، فعاد النزاع كما قلنا لفظياً»[١].

وقال أيضاً: «أجمع الصحابة ﷺ على الرجوع في قضاياهم العامة إلى قضايا النبي ﷺ الخاصة، كرجوعهم في حد الزاني إلى قصة ماعز[٢]...»[٣].

ومن الأمثلة في ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

قال السمرقندي: «﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وهذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد منه أمته»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].

قال ابن جزي: «﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به كل مخاطب على الإطلاق، فدخل فيه غيره من الناس»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن عطية: «هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه

---

(١) شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٢٠٥ (٦٨١٥)، كتاب الأشربة باب لا يرجم المجنون والمجنونة، ومسلم ٣/ ١٣١٧ (١٦٩١)، كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنى من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٥. وينظر للاستزادة: أحكام القرآن للجصاص٣/ ٤٧٢، الإحكام للآمدي ٢/ ٢٦٠، روضة الناظر ٢/ ١٠٠، المحصول ٢/ ٣٧٩، تفسير البيضاوي ٤/ ٣٧٧، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢١٨، نهاية الوصول في دراية الأصول ٤/ ١٣٨١، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر ٥/ ٣٥٢.

(٤) تفسير السمرقندي ١/ ١١٦.

(٥) التسهيل ١/ ٢٦٧.

بالمعنى»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء]، قال المفسرون: هذا في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف].

قال السعدي: «هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة، ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو: الكلام على الغيب المستقبل»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

قال أبو حيان: «وأمره بالتقوى للمتلبس بها، أمر بالديمومة عليها والازدياد منها، والظاهر أنه أمر للنبي، وإذا كان هو مأموراً بذلك، فغيره أولى بالأمر»[٤].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢]، فقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يدل على عموم الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ [يونس: ٦١]، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآية [يونس]»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمر].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٦.
(٣) تفسير السعدي ٤٧٤.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٠٦.
(٥) أضواء البيان ١/ ٣٧٧.

قال البغوي: «وهذا خطاب للنبي ﷺ، والمراد منه غيره، وقيل: هذا أدب من الله ﷻ لنبيه وتهديد لغيره؛ لأن الله تعالى عصمه من الشرك»(١).

وقال البيضاوي: «﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمر: ٦٥] كلام على سبيل الفرض، والمراد به: تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد»(٢).

وغيرها من الآيات في هذا المعنى كثير(٣).

كلُّ هذه الأمثلة تُظهر لنا عادة من عادات القرآن في خطابه: أن الأصل في خطاب النبي ﷺ في القرآن العموم لأمته، حتى يدل دليل على الخصوصية.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطِقُنا فيما له فيه عُرْف بعرفِه»(٤).

وعليه فيُقدم العُرف الشرعي على الوضع اللغوي، ويترجح قول الجمهور بأن خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ٧/ ١٣٠.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٧٦.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٤٨٥، الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١١٨٣، ١٣٩٢، ٦/ ٤٣٢٧، النكت والعيون ٥/ ٣٥٦، المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣، ٤/ ٥٩٥، تفسير القرطبي ٢/ ١٦٣، ٩/ ١٨، تفسير البيضاوي ٣/ ٣٤٣.

(٤) الإحكام ٣/ ٢٠.

المبحث الثاني

خطاب القرآن للناس

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: الخطاب بلفظ الناس وبلفظ الإيمان.**
- **المطلب الثاني: خطاب الرجال والنساء.**
- **المطلب الثالث: خطاب العام وخطاب الخاص.**

المطلب الأول

الخطاب بلفظ الناس، وبلفظ الإيمان

المراد بالخطاب: الكلام الذي يُقصد به الإفهام.

قال الكفوي: «اللفظ المتواضَع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه»(١).

والقرآن خطاب لجميع الأمة، وفيه استعمال الأسلوب المناسب للمخاطب في وقت نزول القرآن ومن يأتي بعدهم، فالقرآن صالح لكل زمان ومكان، وقد جاءت عادة القرآن بالخطاب كثيراً بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أما الأول: فقد تكرر الخطاب للناس في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، وتكرر بأسلوب نداء الناس في واحد وعشرين موضعاً، أغلبها في السور المكية.

---

(١) الكليات ٦٥٨، وقال: احترز بـ(اللفظ) عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبـ(التواضع عليه) عن الألفاظ المهملة، وبـ(المقصود به الإفهام) عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً، وبقوله: «لمن هو متهيئ لفهمه» عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كل شيء نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو بمكة، وكل شيء نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو بالمدينة»(١).

ووجهه أن الغالب في أهل مكة الكفر والشرك، فخوطبوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وإن دخل فيه غيرهم، والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وإن دخل فيه غيرهم(٢).

قال أبو حيان: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قال الجمهور: لأهل مكة»(٣).

وقال ابن عاشور: «فالخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ موجه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾»(٤).

وعند تأمل المقصود بلفظ الناس في القرآن تبين لي أنه نداء جنسٍ للناس عموماً.

ومما يدل على ذلك:

أن في القرآن سوراً مدنية وفيها الخطاب بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مثل سورة البقرة، والنساء.

قال ابن تيمية: «... ولكن في السور المدنية خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان، وكذا في البقرة»(٥).

وقال القرطبي: «وأما من قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، في موضعين»(٦).

---

(١) أخرجه البزار ٤/ ٣٣٦ (١٥٣١)، والحاكم ٣/ ٢٠ (٤٢٩٥) وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ كلهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن مرسلاً عن علقمة ٢٢٢ (١٣ ـ ٥٦)، وينظر: البرهان ١/ ١٨٨.

(٢) ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم ١/ ٥٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤٣.

(٤) التحرير والتنوير ٢/ ١٠١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٦٠.

(٦) تفسير القرطبي ١/ ٥، والموضعان: آية: ٢١، وآية: ١٦٩.

وقال الزركشي: «سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ﴾ [البقرة]، وفيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وسورة النساء مدنية وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وفيها: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النساء: ١٣٣]، وسورة الحج مكية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح»[(١)].

وقال أيضاً في وجوه الخطاب في القرآن: «خطاب الجنس نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإن المراد جنس الناس لا كل فرد، وإلا فمعلوم أن غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلب في خطاب أهل مكة»[(٢)].

وعليه فعادة القرآن الخطاب بلفظ الناس وإرادة الجنس، فيدخل في الخطاب كل من يصلح له إلا بدليل؛ سواء كان من أهل مكة أو غيرها أو ممن جاء بعدهم.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١].

فهذا خطاب في سورة البقرة عام لجميع الخلق؛ إذ كلهم مقرون بأن الله خالقهم، ومن لازمه أنه المستحق للعبادة.

قال السمرقندي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ يعني: أطيعوا ربكم، ويقال: وحدوا ربكم، وهذه الآية عامة، وقد تكون كلمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خاصة لأهل مكة، وقد تكون عامة لجميع الخلق، فهاهنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لجميع الخلق، يقول للكفار: وحدوا ربكم، ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا دينكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم، واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها وهو من جوامع الكلم»[(٣)].

---

(١) البرهان ١/ ١٩٠.
(٢) البرهان ٢/ ٢٢٦.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٥٩، وينظر: التسهيل ١/ ٧٧، تفسير ابن كثير ١/ ١٩٥.

وقال مكي: «وإنما خاطب الله الكفار بهذا لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم، دليل ذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرف: ٨٧]، فقيل لهم: إذا كنتم مقرين بأن الله خالقكم فاعبدوه، ولا تجعلوا له شركاء»(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

هذا خطاب في سورة النساء، وهو عام لجميع الناس.

قال السمرقندي: «إن الخطاب في هذا الموضع عام لجميع الناس»(٢).

وقال ابن جزي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، خطاب على العموم»(٣).

قال ابن عاشور: «جاء الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليشمل جميع أمة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ وفيما يأتي من الزمان»(٤).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء].

هنا خطاب من الله تعالى لجميع الناس.

قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] لما قرر أمر النبوة وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها؛ خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد»(٥).

وقال أبو حيان: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] هذا خطاب لجميع الناس، وإن كانت السورة مدنية فالمأمور به أمر عام»(٦).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ١٨٢.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠٣.
(٣) التسهيل ١/ ٢٢٩.
(٤) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٤.
(٥) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٨٢.
(٦) البحر المحيط ٣/ ٤١٦.

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للكل»(١).

ودخول المشركين فيه دخولاً أكيداً؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾.

قال ابن عاشور: «الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يعني خصوص المشركين في الغالب، وهو المناسب لقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾»(٢).

ـ وقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء].

ففي هذه الآية الخطاب بلفظ الناس الدال على العموم.

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، يا أيها الناس من جميع أصناف الملل، يهودِها ونصاراها ومشركيها، الذين قص الله جل ثناؤه قَصَصهم في هذه السورة»(٣).

وسياق الآية دال على ذلك، فقد أورد الحجة على جميع الفرق وجاء الخطاب بعدها.

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم، عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج].

قال أبو حيان: «قيل: خطاب للمؤمنين أراد الله أن يبين لهم خطأ

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٢٠، وينظر: تفسير السعدي ٢١٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٤٩.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٤٢٧، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٥٤٣.
(٤) تفسير الرازي ١١/ ٩٥.

الكافرين فيكون: ﴿تَدْعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ خطاباً لغيرهم الكفار عابدي غير الله، وقيل: الخطاب عام يشمل من نظر في أمر عبادة غير الله، فإنه يظهر له قبح ذلك»[١].

والظاهر أن من قال إنه خطاب للمؤمنين بناه على القول بمدنية السورة، والأَوْلَى القول بأن الخطاب عام فالمؤمن يزداد إيماناً، والكافر تقوم عليه الحجة، وهذا الأسلوب ليس غريباً في القرآن.

قال السعدي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحج: ٧٣]، هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة»[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان].

هذا خطاب للناس عموماً، ويدخل فيه المشركون دخولاً أولياً كما ذكر ذلك بعض المفسرين.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أيها المشركون من قريش»[٣].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ قال المفسرون: هذا خطاب لكفار مكة»[٤].

وهذا التفسير بأنهم المشركون من أهل مكة لا يمنع دخول غيرهم فيه؛ لعدم الدليل على التخصيص.

قال البقاعي: «ولما ظهَرَت ـ بما ذكر في هذه السورة ـ دقائقَ الحكمة، . . . أمر سبحانه عباده عامةً عاصيهم ومطيعهم بالإقبال عليه، وخوّفهم ما هم صائرون إليه، منادياً لهم بأدنى أوصافهم. . . فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: عامة، ولفت الكلام إلى الوصف المذَكَّر بالإحسان ترغيباً وترهيباً فقال: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾»[٥].

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٥٩.
(٢) تفسير السعدي ٥٤٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/١٥٨.
(٤) زاد المسير ٦/٣٢٩.
(٥) نظم الدرر ٦/٣٦.

فالصحيح بقاء الخطاب عاماً على الأصل، ولأن هذه عادة القرآن.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

فهذا الخطاب عام لجميع الناس، على اختلاف أنواعهم وأجناسهم، والأكرم عند الله تعالى هو الأتقى.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(١)].

وهذه الآية نزلت بمكة، وحكمها مدني؛ لأنها نزلت بعد الهجرة.

قال الزركشي: «ذكر ما نزل بمكة وحكمه مدني، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية، ولها قصة يطول بذكرها الكتاب، ونزولها بمكة يوم فتحها، وهي مدنية؛ لأنها نزلت بعد الهجرة»[(٢)].

فتشمل في الخطاب المؤمنين وغيرهم ولا دليل على التخصيص.

وأما الخطاب الثاني: وهو خطاب المؤمنين، فقد تكرر في القرآن كثيراً، ونداؤهم بصفة الإيمان ثُنِّي في تسعين موضعاً من كتاب الله تعالى، أغلبها في السور المدنية.

وقد رأى بعض العلماء اطراد هذا الضابط في المدني[(٣)].

قال ابن عطية تعقيباً على هذا الضابط: «وقد يجيء في المدني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فصحيح»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٠٩، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٧٠١٠، تفسير ابن كثير ٧/ ٣٨٥.

(٢) البرهان ١/ ١٩٥.

(٣) أن كل ما فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدني.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٩٢.

وقال ابن تيمية: «فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان، وكان بها أهل الكتاب، خُوطِبَ هؤلاء وهؤلاء؛ فهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهؤلاء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أو ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا»(١).

وقال أبو حيان: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متوجه إلى من بالمدينة من المؤمنين»(٢).

ويستثنى من هذا الإطلاق سورة الحج عند من يرى أنها مكية، إذ فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج](٣).

قال الزركشي: «خطاب المدح نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهذا وقع خطاباً لأهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا، تمييزاً لهم عن أهل مكة، وقد سبق أن كل آية فيها يأيها الناس لأهل مكة، وحِكْمَة ذلك: أنه يأتي بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: الأمر بأصل الإيمان، ويأتي بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الأمر بتفاصيل الشريعة، وإن جاء بعدها الأمر بالإيمان كان من قبيل الأمر بالاستصحاب.

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، قيل: يرد الخطاب بذلك باعتبار الظاهر عند المخاطب، وهم المنافقون، فإنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان، كما قال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]»(٤).

وقال ابن عاشور: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان»(٥).

وعليه فخطاب المؤمنين واضح أنه لمن دخل في دين الله، واتصف بالإيمان على تفاوت مراتب الإيمان.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٦٣.
(٢) البحر المحيط ١/ ٥٠٨.
(٣) ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم ١/ ١٦٧.
(٤) البرهان ٢/ ٢٢٨، ٢٢٩.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٥.

وعادة القرآن بعد نداء المؤمنين الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.

ومن ذلك الدعوة إلى ما يقتضيه الإيمان من شروطه ولوازمه ومكملاته، وأحياناً يدعوهم إلى شكر نعم الله تعالى عليهم وآلائه، وذلك بالامتثال التام لأمره ونهيه(١).

قال ابن مسعود ﷺ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(٢).

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

هذا خطاب للمؤمنين يدعوهم إلى الخير والأصلح لهم في التعامل مع اليهود.

قال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب للمؤمنين، فيه إرشاد لهم إلى الخير، وإشارة إلى بعض آخر من جنايات اليهود»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

في هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين آمراً لهم بالصيام، وإشارة لهم بالجامع لكل ما قيل في حكمة الصيام(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

في هذه الآية حث المؤمنين على تقوى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قال مكي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هذا خطاب للمؤمنين،

---

(١) ينظر: القواعد الحسان ١٨.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ١٠٧ (٣٩٤١)، وينظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٦.
(٣) تفسير أبي السعود ١/ ١٤١.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٧، القواعد الحسان ٣٢.

ومعنى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ راقبوه، ودوموا: على طاعته»[١].

ـ وقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النساء].

في هذه الآية أرشد الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لبوسه[٢].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١] هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد ﷺ»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

هذا خطاب للمؤمنين، المراد به: دوام الإيمان وزيادته.

قال أبو حيان: «والظاهر أنه خطاب للمؤمنين، ومعنى: آمنوا دوموا على الإيمان، قاله الحسن، وهو أرجح»[٤].

قال ابن كثير: «أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم»[٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

في هذه الآية الأمر بتعظيم المحرمات والحرم[٦].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خطاب للمؤمنين حقاً أن لا يتعدوا حدود الله في أمر من الأمور»[٧].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٠٨٤.
(٢) ينظر: القواعد الحسان ٨٩.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٢٧٣.
(٤) البحر المحيط ٣/ ٣٨٦.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٦) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٦٤.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ١٤٥، وينظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٧.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة].

هذا خطاب لجميع المؤمنين أن يجتنبوا الشهوات والعادات المحرمة، وبيان لعلة التحريم.

قال ابن عطية: «الخطاب للمؤمنين جميعاً؛ لأن هذه الأشياء شهوات وعادات قد تلبس بها في الجاهلية، وغلبت على النفوس، فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين»(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال].

وفي هذه الآية خطاب المؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله، والمداومة على ذلك.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدقين، أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم، جدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ونهاهم عن التولي عنه، هذا قول الجمهور»(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال].

وهذا خطاب للمؤمنين بالاستجابة لأمر الله تعالى ورسوله.

قال ابن عطية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٢٧١.
(٢) تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٧.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨٨، وينظر: تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٩.

في هذه الآية خاطب الله تعالى المؤمنين بتقوى الله، والحث على الصدق الذي أنجى الصادقين.

قال أبو حيان: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، هو خطاب للمؤمنين، أُمِروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق»(١).

وإذا جاء النداء بصفة الإيمان فدلالة السياق هي التي تحدد كمال الإيمان في الموصوف أو نقصها.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من غضّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم، من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه»(٢).

وقال السعدي: «فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمماً لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصاً في شيء منها.

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقاً الجامع لمعاني الإيمان»(٣).

هذا؛ وقد تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن عادةَ القرآن تنوعُ خطاباته لمراعاة المخاطبين.

قال ابن العربي: «فإن الخطاب في القرآن لم يرد باباً واحداً»(٤).

٢ ـ أن الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عام لجميع الخلق الذين يصلح

(١) البحر المحيط ٥/١١٣.
(٢) تفسير الطبري ١٩/١٦٥، وينظر: تفسير السمرقندي ٢/٥١٠، التسهيل ٢/٢٥٩.
(٣) القواعد الحسان ٧٠.
(٤) أحكام القرآن ٤/٣٦٨.

خطابهم، والمشركون من أهل مكة وغيرهم داخلون أولياً في هذا العموم، وأكثر ما يأتي بعده بيان التوحيد وأصول الإيمان، لِحاجَة المخاطَبين.

٣ ـ أن الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لكل من اتصف بالإيمان وإن قل، والأسلوب مراعىً فيه حال المنادى، وغالباً ما يأتي بعده حثُّ المؤمنين على الخير أو تحذيرهم من الشر، ومن ذلك بيان التكاليف الشرعية.

وأختم بفائدة ابن القيم حيث يقول: «تأمل خطاب القرآن تجد ملِكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومرادها إليه، مستوياً على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، . . . فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم ما العقوبة إن عصوه. . .»[1].

اللَّهُمَّ اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

المطلب الثاني

خطاب الرجال والنساء

عادة القرآن تغليب جمع الذكور في خطاب الرجال والنساء، وهي قاعدة أصولية مُختلف فيها معروفة: هل ما في القرآن والسُّنَّة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها ـ مما يختص بجماعة الذكور ـ تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن إلا بدليل منفصل؟.

وقبل الدخول في التفاصيل أُحرر محل البحث في هذه العادة، فأقول:

إن الجمع لا يخلو من إحدى هذه الصور:

---

(١) الفوائد ٢٨.

الأولى: أن يكون الجمع لا يصح إطلاقه على النساء، كالرجال، فهو جمع خاص بالرجال اتفاقاً.

الثانية: أن يكون الجمع لا يصح إطلاقه على الرجال؛ كالنساء، فهو جمع خاص بالنساء اتفاقاً.

الثالثة: أن يكون ذلك الجمع متناولاً للذكور والإناث لغة ووضعاً؛ كالناس فإنه يتناول الذكور والإناث بالاتفاق(١).

أما الصورة **الرابعة** التي فيها الخلاف فهي: إذا كانت علامة الذكور فيه واضحة بينة، كجمع المذكر، نحو: المؤمنين.

وقد اتفق أهل اللغة على تغليب جمع الذكور ودخول النساء فيه(٢).

والدليل على ذلك: استعمال العرب.

قال ابن فارس: «إذا جاء الخطاب بلفظ مذكر ولم يُنَصَّ فيه على ذِكر الرجال فإن ذلك الخطاب شامل للذكران والإناث، كقوله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، كذا تَعْرف العرب هذا»(٣).

وورود آيات في كتاب الله تعالى تدل على دخول النساء في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، وقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]؛ فإن حواء داخلة في قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ إجماعاً(٤).

---

(١) ينظر: التمهيد لأبي الخطاب ١/ ٢٩٠، روضة الناظر لابن قدامة ٢/ ١٤٨، الإحكام للآمدي ٢/ ٢٦٥.

(٢) لسان العرب ٩/ ٩، وأشار إلى الاتفاق القاضي أبو يعلى الحنبلي في العدة ٢/ ٣٥٣، وابن النجار في شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٣٧.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة ١٤١.

(٤) ينظر: أضواء البيان ١/ ٣٦.

قال الطبري: «وقد اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾، مع إجماعهم على أن آدم وزوجته ممن عُني به»[١].

وقال الرازي: «اختلفوا في المخاطبين بهذا الخطاب بعد الاتفاق على أن آدم وحواء عليهما السلام كانا مخاطبين به»[٢].

وقال ابن منظور: «وإنما المستجاز من ذلك رد التأنيث إلى التذكير؛ لأن التذكير هو الأصل بدلالة أن الشيء مذكر وهو يقع على المذكر والمؤنث فعلم بهذا عموم التذكير وأنه هو الأصل الذي لا ينكر»[٣].

إذن بقي اختلاف العلماء في: مسألة اندراج النساء تحت لفظ جمع المذكر؛ هل هو بالتغليب أو بأصل الوضع؟.

فقد ذهب جماعة من الحنابلة؛ كالقاضي أبي يعلى وابن قدامة[٤]، ورواية عن الإمام أحمد، وهو قول لابن داود الظاهري: إلى أن دخول النساء في جمع المذكر بأصل الوضع، واستدلوا بأدلة من أهمها: استخدام العرب، والآية السابقة.

وهناك رواية أخرى عن الإمام أحمد: أن النساء لا يدخلن في ذلك بأصل الوضع بل بالتغليب، **واختارها من الحنابلة أبو الخطاب[٥]، والطوفي[٦]** واستدلوا بأدلة من أهمها:

ـ ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟... فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٣٥.
(٢) تفسير الرازي ٣/ ١٦، وينظر: تفسير البيضاوي ١/ ٢٩٨، تفسير أبي السعود ١/ ٩١.
(٣) لسان العرب ٢/ ٥٧.
(٤) ينظر: العدة ٢/ ٣٥١، روضة الناظر ٢/ ١٤٨.
(٥) ينظر: التمهيد ١/ ٢٩١.
(٦) في شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٥١٥.

فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب]»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وحاصل القول: أن دخول النساء في جمع المذكر راجع إلى السياق والقرائن[(٢)]، فسماه بعضهم تغليباً، والآخرون أصلاً، وبهذا تتفق الأقوال[(٣)].

ولذا يستدل من قال بدخولهن بأصل الوضع بدلالة التغليب للذكور.

وأَما أن يُفَسَّر قولُ من قال بدخول النساء في جمع المذكر بأصل الوضع بأنه:

ينصرف جمع المذكر للنساء كما ينصرف إلى الرجال على حد سواء فهذا لا يسُوغ؛ لأمرين:

١ ـ القطع باختصاص الذكور بهذه الصيغة لغةً واختصاصِ النساء بغيرها.

٢ ـ إجماع أهل اللغة على ذلك.

ولذا قال أبو المعالي[(٤)]: «وما ذكره هؤلاء من تغليب علامة التذكير عند محاولة التعبير عن الجنسين فصحيح في الجملة، ولكنهم لم يفهموه على وجهه؛ فإن ما ذكروه سائغ إن أريد، فأما أن يقال: وضع اللسان على أن المسلمين مسترسل على الرجال والنساء استرساله على آحاد الرجال فلا، والذي ذكروه صالح لو أريد، وليس في اللسان القضاء به إلا عند قرينة

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٠١ (٢٦٥٧٥)، والطبري في التفسير ١٠/ ٣٠٠، والحاكم ٢/ ٤١٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: الإتقان ٢/ ٣٨.

(٣) ينظر: شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٥١٦.

(٤) هو: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الطائي السنبِسي أبو المعالي الجويني الشافعي، له مصنفات من أشهرها: «البرهان»، و«الورقات في أصول الفقه»، مات سنة (٤٧٨هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨، شذرات الذهب ٣/ ٣٥٨.

شاهدة عليه»[١].

وقال ابن عقيل الحنبلي[٢] ضمن جوابه على دليل من منع الدخول بأصل الوضع: «وإن قلنا: إنهن يدخلن، فإنما يدخلن من جهة الظاهر، فأما من جهة الصريح والنص فلا..»[٣].

وقال ابن تيمية: «ثم لا خلاف بين الفريقين أن آيات الأحكام والوعد والوعيد، التي في القرآن تشمل الفريقين وإن كانت بصيغة المذكر»[٤].

وعليه فالصواب:

أن تناول صيغة جمع المذكر للنساء بقرينة شرف الذكورية وتسمى التغليب، وهو واقع في اللغة كما سبق، وتدخل النساء في جمع المذكر حسب دلالة العرف، وكذا دلالة الشرع؛ لأن عموم الأحكام الشرعية شاملة للجنسين[٥]، وعليه جرت عادة القرآن.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خص الله ﷻ الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد، فإن قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن»[٦].

فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وجاء على طريقتهم في الخطاب فإن النساء يدخلن في خطاب الرجال؛ لأن العرب تغلّب المذكر على المؤنث، فيقول الرجل: ادخلوا، واخرجوا، وهو يقصد بذلك مخاطبة جميع الموجودين من ذكور وإناث، ولا يستقيم في لغة العرب أن يقول: ادخلوا وادخلن، واخرجوا واخرجن.

---

(١) البرهان في أصول الفقه ١/ ٢٤٥.

(٢) هو: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الظَّفَري، المقرئ الفقيه الحنبلي الأصولي الواعظ المتكلم، أبو الوفاء، من مصنفاته: «الفنون»، «الواضح في أصول الفقه»، «الجدل على طريقة الفقهاء»، مات سنة (٥١٣هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٩، غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٥٥٦.

(٣) الواضح ٣/ ١٣١، وهو من القائلين بدخول النساء في خطاب المذكر بأصل الوضع.

(٤) مجموع الفتاوى ٦/ ٤٣٨.

(٥) ينظر: شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٣٦.

(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٦.

وقد عُلم أيضاً بأدلة الشريعة ومقاصدها أن التكليف بالأحكام الشرعية موجَّهٌ إلى الرجال والنساء، فالجميع مكلَّفون ومخاطبون ومحاسبون ومثابون ومعاقبون. فاشتراك الرجال والنساء في جميع الأحكام هو الأصل المطَّرد إلا ما خصته الشريعة بالرجال دون النساء؛ كتحريم الذهب والحرير، ووجوب الجمعة والجهاد، وما خصته بالنساء دون الرجال؛ كالحجاب، ورعاية الأولاد، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعة كل من النوعين، والله أعلم.

قال ابن تيمية: «وقد عهدنا من الشارع في خطابه أنه يعم القسمين ويدخل النساء بطريق التغليب»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف].

جاء بجمع المذكر ليعُم المذكر والمؤنث من الباقين.

قال الطبري: «وقيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، ولم يقل: الغابرات؛ لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾»(٢).

وقال الزمخشري: «﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من الذين غبروا في ديارهم؛ أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث»(٣).

وقال ابن جزي: «إنما قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بجمع المذكر تغليباً للرجال الغابرين»(٤).

وقوله جل وعلا في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف].

عَدَل من جمع المؤنث إلى جمع المذكر من باب التغليب، وأل للاستغراق.

قال البيضاوي: «﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ من القوم المذنبين

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٤٣٦.
(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥١.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٩، وينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٣٨، تفسير النسفي ٢/ ٢٣.
(٤) التسهيل ١/ ٤٠٢.

من خطئ إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب»[١].

وقال أبو حيان: «ثم ذكر سبب الاستغفار وهو قوله: لذنبك، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾، ولم يقل: من الخاطئات؛ لأن الخاطئين أعم؛ لأنه يطلق على الذكور والإناث بالتغليب»[٢].

وقال القرطبي: «﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣]، ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التَّحريم: ١٢]»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ من جملة القوم المعتمدين للذنب أو من جنسهم، يقال: خطئ إذا أذنب عمداً، وهو تعليل للأمر بالاستغفار، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل].

فلم تأت الآية بجمع المؤنث؛ لأن الإخبار عن المؤنث والمذكر، فغلب المذكر[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التَّحريم].

ففي هذه الآية غُلِّب جمع المذكر مع أن السياق في مؤنث دخل في جمع المذكر من باب التغليب المعروف عند العرب.

قال البيضاوي: «﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب»[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٨٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٩٨.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ١٧٥.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٠.
(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٩/ ١٧٥.
(٦) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٥٩، وينظر: تفسير أبي السعود ٨/ ٢٧٠.

قال أبو حيان: «﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ غلب الذكورية على التأنيث، والقانتين شامل للذكور والإناث»(١).

وقال الزركشي: «وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣]، والأصل من القانتات والغابرات فعُدَّت الأنثى من المذكر بحكم التغليب»(٢).

وبعد؛ فهذه نماذج من كتاب الله تعالى في خطاب البشر رجالاً ونساءً، والمرأة على عادة القرآن داخلة فيما يصلح لها من خطابات القرآن، فهي داخلة في خطاب الله تعالى للناس على وجه العموم، فيما يدعوهم إليه، وهي داخلة في خطاب الله تعالى للمؤمنين، في كل الأوامر والنواهي، إلا ما دل عليه الدليل، وهي داخلة في خطاب الذكور حسب دلالة السياق في عرف اللغة، وفي عرف الشرع، وهذا من كمال الشريعة، وجمال اللغة، وهو من التميز الذي عرف به الأسلوب القرآني في اختيار اللفظ المؤدي للمعنى الجامع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

خطاب العام وخطاب الخاص

الأصل حمل خطابات القرآن العامة على عموم لفظها ما لم يرد نص بالتخصيص، فقد كان السلف رضوان الله عليهم يطلبون دليل الخصوص لا دليل العموم(٣).

ولهذا فمعرفة العام والخاص مهم في فهم الآية ودلالتها.

قال الزركشي: «قال القفال: ومن ضبط هذا الباب أفاد علماً كثيراً»(٤).

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩٠.
(٢) البرهان ٣/ ٣٠٢.
(٣) قال أبو يعلي: «فإن المسألة إجماع الصحابة ﷺ» وذكر ما يؤيد ذلك، ينظر: العدة في أصول الفقه ٢/ ٤٩٢، الواضح ٣/ ٣١٧.
(٤) البرهان ٢/ ١٩.

والعام: هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له[١].

والخاص: هو قصر العام على بعض أفراده بدليل[٢].

وقد خاطب الله تعالى الناس في القرآن على أنواع مختلفة، فاجتمع فيه خطاب الخاص وخطاب العام على جميع وجوهه.

ولم يخرج غالب من كَتَبَ في العام والخاص القرآني من بحوث علماء أصول الفقه، إلا في الشيء القليل.

وعادة القرآن في الخطاب الشرعي العام بقاؤه على العموم، إلا ما خصه الدليل[٣].

قال الطبري: «وغير جائز ادعاء خصوصٍ في آيةٍ عامٌّ ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها»[٤].

وقال القرطبي: «والأصل عموم الخطاب، فمن ادعى زواله لأمر ما فعليه الدليل»[٥].

وأمثلة هذا كثيرة منها:

ـ ما ذكره الطبري بعد ذكر أقوال السلف في المراد بالبقرة الواردة في سورة البقرة: «وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه ـ من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم: إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم **من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله، فيما أمرَ ونهى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يَخُصَّ بعض ما عمَّهُ ظاهرُ التنزيل**، كتاب من الله أو رسولُ الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خص بعض ما عمه ظاهر التنزيل بحكم خلافِ ما دل عليه الظاهر؛

---

(١) ينظر: العدة ١/ ١٥٥، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٢.
(٢) ينظر: شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٦٧، التأسيس في أصول الفقه ٣٤٩.
(٣) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين ٢/ ٥٢٧.
(٤) تفسير الطبري ٢/ ٤٦٤. (٥) تفسير القرطبي ٢/ ٢٣٤.

فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمَّت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال البيضاوي: «الخطاب عام كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

قال ابن جزي: «خطاب عام؛ لأن النبي ﷺ بُعِث إلى جميع الناس»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن عطية: «﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ هذا خطاب عام لجميع العالم، وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج].

قال القرطبي: «المسافر يخاطب بالأضحية كما يخاطب بها الحاضر، إذ الأصل عموم الخطاب بها، وهو قول كافة العلماء»[٦].

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٠٧.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٦٥.
(٣) التسهيل ١/ ٢٩٢.
(٤) الكشاف ١/ ٥٥٥.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ٤٧.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال أبو السعود: «فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين في الآفاق من الحاضرين والمسافرين»(١).

وكما أن التكاليف بالأوامر والنواهي على درجات، فكذلك العموم في التكاليف متفاوت، فهناك عموم وعموم أعم منه، فيراعى في ذلك سياق الآية(٢).

قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قال ابن تيمية: «ومن المعلوم بالاضطرار تفاضل المأمورات: فبعضها أفضل من بعض، وبعض المنهيات شر من بعض»(٣).

وعادة القرآن كذلك بقاء عموم أخباره حتى يأتي ما يخصصها.

ـ وقد نص عليها الطبري في مواضع كثيرة، ويرجح بها، حيث يقول بعد ذكر الخلاف في الأسير في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان]: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير، والأسير الذي قد وصفت صفته؛ واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عمّ الخبر عنهم أنهم يطعمونهم فالخبر على عمومه حتى يخصه ما يجب التسليم له»(٤).

ـ وقال مرجحاً للعموم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]: «والصواب من القول في ذلك عندنا، أن الله عمّ بقوله: ﴿فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشرّ، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه حتى يأتي خبر تقوم به الحجة دالّ على خصوصه»(٥).

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٧٨.
(٢) فقد يكون العموم للناس كافة، وقد يكون لعموم المؤمنين، وهكذا.
(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ٦١.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٨.
(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة].

لما ذكر أبو بكر بن العربي الخلاف في المراد بالمساجد، قال: «الرابع: أنه كل مسجد، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصه ببعض المساجد، أو بعض الأزمنة محال»[(١)].

وقال البيضاوي: «﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عام لكل من خرَّب مسجداً أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

فالخطاب عام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[(٣)].

قال الزمخشري: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخطاب عام»[(٤)].

وقال ابن جزي: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ خطاب عام لجميع الناس؛ لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله، وقيل: خطاب لليهود خاصة، والأول أظهر؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم لا يصلون إلى العلم بالروح»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء].

قال ابن الزِّبَعرى[(٦)]: «لأخصمن محمداً، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) أحكام القرآن ١/ ٥٩.
(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٣٨٥.
(٣) ينظر: تفسير النسفي ٢/ ٢٩٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٦٤٥.
(٥) التسهيل ٢/ ١١٨.
(٦) هو: عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس أبو سعد القرشي السهمي الشاعر، كان شديداً على المسلمين في الجاهلية، أسلم بعد الفتح، واعتذر ومدح النبي ﷺ، فقبل منه وعذره وأحسن إليه، له ترجمة في: الإصابة ٤/ ٨٧، طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٣٣ وما بعدها.

قد عُبِدت الملائكة، وعُبِد المسيح، أفيدخلون النار؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]»[(١)].

هذا ما ذكره عامة المفسرين في سبب نزول هذه الآية، ومنهم: الطبري[(٢)]، والسمرقندي[(٣)]، والسمعاني[(٤)]، والبغوي[(٥)]، وابن عطية[(٦)]، وغيرهم[(٧)].

وفيه دليل على أن صيغة العموم تدل على الاستغراق، بدليل استدلال ابن الزبعرى بعموم اللفظ، ولم ينكر عليه النبي ﷺ هذا الفهم؛ بل أنزل الله الآية التي تبين حكم الله فيمن ذكر كعيسى والملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]، وهذا استدلال صحيح؛ فلا بد من دليل خاص لإخراج شيء من لفظ العموم.

قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء]، ومعلوم أنه لم يرد به المسيح وعزيراً؛ فنزلت الآية مطلقة اكتفاء بالدلالة الظاهرة على أنه لا يعذبهما الله وكان ذلك بمنزلة الاستثناء باللفظ، فلما قال المشركون: هذا المسيح وعزير قد عُبِدا من دون الله أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]»[(٨)].

وقال الرازي: «هب أنه ثبت العموم، لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير؛ لبراءتهم من الذنوب والمعاصي، ووعد الله إياهم بكل مكرمة»[(٩)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٥٣ (١٢٧٣٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٥٢، وذكره الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٣٥، وينظر: مجمع الزوائد ٧/ ٦٩.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤١٩.
(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٢.
(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٤١٠.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٠١.
(٧) ينظر: زاد المسير ٥/ ٢٨٨، تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣، تفسير القرطبي ١١/ ٣٤٣.
(٨) البرهان ٢/ ١٨٦.
(٩) تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

وذهب بعض العلماء إلى أن الصيغة لا تفيد العموم.

وأجابوا عن سؤال ابن الزبعرى بأجوبة منها:

١ ـ أن الخطاب لأهل مكة، و[مَا] في الآية لغير العالم فلا يدخل إلا الأصنام التي عبدوها، وفي إدخالها النار زيادة ذل ومهانة لعابديها، فكيف يورد هذا على المسيح والملائكة[١].

٢ ـ أن من عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة؛ لقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٩][٢].

وهذه الأجوبة وإن كانت محتملة في هذه الآية؛ إلا أن بقاء اللفظ العام على عمومه هو الأولى والأقوى والأظهر[٣] لأمور منها:

الأول: أن ابن الزبعرى استدل بـ[مَا] في الآية على العموم، وهو حجة في اللغة[٤].

الثاني: أكَّد ذلك أنه لم ينكر عليه النبي ﷺ، بل جاءت الآية الأخرى مبينة لها.

الثالث: أن لفظة [مَا] وإن كان استعمالها لغير العالم فقد تستعمل للعالم، كما قال تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون].

الرابع: أنه على فرض خطأ استدلال ابن الزبعرى كما ذكر بعض العلماء، فلا يمنع من بقاء الاستدلال بالعموم على عمومه، ويكون المانع له في هذا الدليل صوارف غير لفظ العموم، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٢، تفسير السمعاني ٣/ ٤١٠، تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٤٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

(٣) وهذه مسألة أطال فيها الأصوليون، فينظر مثلاً: العدة ٢/ ٤٨٥، الإحكام للآمدي ٢/ ١٨٥، الإحكام لابن حزم ١/ ٣٣٨، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٨، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤٦٥، تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

(٤) ينظر: العدة ٢/ ٤٩٠.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر].

قال جماعة من المفسرين: المراد بالإنسان الجنس؛ فيعم كل الناس، وبهذا فسره الطبري[١]، والزجاج[٢]، وابن الجوزي[٣]، والقرطبي[٤]، وغيرهم[٥].

قال الزجاج: «الإنسان ههنا في معنى الناس، كما تقول: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس، تريد قد كثر الدراهم»[٦].

ودليلهم: أن الله سبحانه استثنى من الإنسان جماعة فدل على أن المراد عموم الناس.

قال الطبري: «واستثنى الذين آمنوا عن الإنسان؛ لأن الإنسان بمعنى الجمع لا بمعنى الواحد»[٧].

وقال الفراء: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣] استثنى كثيراً من لفظ واحد؛ لأنه تأويل جِمَاع»[٨].

وذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان هنا بمعنى الكافر[٩]، ومنهم السمرقندي[١٠]، والواحدي[١١]، وأشار إليه النحاس[١٢].

قال السمرقندي: «يعني: أبا جهل، والوليد بن المغيرة، ومن كان في مثل حالهم»[١٣].

وقال الواحدي: «يعني: الكافر العامل لغير طاعة الله»[١٤].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٥٩.
(٣) زاد المسير ٨/ ٣١٦.
(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٥) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥٢٦، تفسير النسفي ٤/ ٣٧٥، تفسير ابن كثير ٨/ ٣٨٥٣، الوجوه والنظائر للدامغاني ٥٢.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٥٩.
(٧) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٤.
(٨) معاني القرآن ٢/ ٥.
(٩) ينظر: تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.
(١٠) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(١١) الوجيز ٢/ ١٢٣١.
(١٢) ينظر: معاني القرآن ٤/ ٢٥٩.
(١٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(١٤) الوجيز ٢/ ١٢٣١.

وقال البغوي في استدلالهم: «قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين»[١].

والذي يظهر لي أن هذا الدليل لا يقوى على تخصيص اللفظ العام ببعض أجزائه، ويضاف إلى ذلك أن الاستثناء سيكون على هذا التفسير منقطعاً، وهذا خلاف الأصل، فيبقى الاستثناء دليلاً قوياً للقول الأول.

كما أن مما يُستدل لهم به: أن استعمال لفظ الإنسان في القرآن إنما يراد به الكافر؛ لأن هذا اللفظ من خصائص المكي، وهذا أيضاً غير مسَلَّم؛ لأنه ينخرم عليهم في مواضع عدة من كتاب الله تعالى.

قال القرطبي: «وأما من قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، في موضعين»[٢].

فالحق والصواب أن المراد في الآية: عموم الناس؛ لأمور منها:

١ ـ أن هذا هو ما عليه اختيار جماهير العلماء من المفسرين وغيرهم[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ٣] استثناء من الإنسان، إذ هو بمعنى الناس على الصحيح»[٤].

٢ ـ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم أجد دليلاً صحيحاً لمن خصه بأسماء معينة[٥]، قال ابن حجر: «تنبيه: لم أر في تفسير هذه السورة ـ يعني: سورة العصر ـ حديثاً مرفوعاً صحيحاً»[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٩١.
(٢) تفسير القرطبي ٥/ ١، والموضعان: آية: ٢١، وآية: ١٦٩.
(٣) سبقت الإشارة إلى عدد منهم، وينظر: غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٤٢، البرهان للزركشي ٥/ ٧، أضواء البيان ٦/ ١٣٧.
(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٥) ينظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(٦) فتح الباري ٨/ ٩٤٥، وينظر: تفسير السمعاني ٦/ ٢٧٩.

٣ ـ أن الأصل كذلك: بقاء العموم على عمومه حتى يأتي ما يقوى على تخصيصه.

قال الشنقيطي: «وقيل: خاص بالكافر، والأول أرجح للعموم»[(١)].

٤ ـ أن: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [العصر: ٣] اسم موصول يدل على جماعة، والجماعة لا تُستثنى من واحد، فدل ذلك على أنه أراد بالإنسان الجنس[(٢)].

٥ ـ أنه لوكان المراد بالإنسان في الآية الكافر لما احتيج إلى استثناء المؤمنين[(٣)].

والله تعالى أعلم.

والأمثلة في هذا كثيرة.

والحاصل منها: أن خطاب الشرع في القرآن عام لكل من يصلح له حتى يأتي ما يخصصه، فيُطْلب الدليل على الخصوص لا على العموم.

وكذلك نصوص الأخبار في القرآن الأصل حملها على العموم حتى يرد ما يخصصها.

قال ابن تيمية: «فإنه إذا عُرِف المتكلم فهم من معنى كلامه، ما لا يفهم إذا لم يعرف؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث

---

(١) أضواء البيان ٦/ ١٣٧.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٣٣٣، تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٣١.

وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه، ثم إذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة؛ عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو ﷺ بل هي لغة قومه، ولا يجوز أن يُحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه، كما يفعله كثير من الناس، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه..»[(١)].

ومن وجوه المخاطبات في القرآن الخطاب الخاص.

- كقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].
- وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُخان].
- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].
- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وغيرها[(٢)].

فهذه وإن كانت خاصة إلا أن فيها عموماً نسبياً، وحملها على العموم الذي يصلح لها هو الصواب.

ولذلك قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]: «هي خاصة من المسلمين فيمن لم يؤدِّ زكاة ماله منهم، وعامة في أهل الكتاب؛ لأنهم كفار لا تقبل منهم نفقاتهم إن أنفقوا»[(٣)].

وقال البغوي: «وقال الأكثرون: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين»[(٤)].

وقال ابن جزي: «﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُخان]، يقال

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢١٧، ٢١٨.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٥.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤.

هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به»[١].

والذي يرجحه المحققون عموم حكم الخطاب لجميع المكلفين الذين حالهم كحال ذلك الذي نزل فيه القرآن، وجماهير العلماء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

قال الشاطبي: «غالب الأدلة الشرعية وعمدتها هي العمومات»[٣].

ومما يؤكد هذه العادة: عدم ذكر من كان سبباً في النزول في أكثر آيات القرآن التي لها سبب صحيح، بل يأتي اللفظ عاماً ليكون تشريعاً لجميع أهل الإسلام بدلالة العموم.

قال ابن تيمية: «والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً»[٤].

والقائلون بالعموم أرادوا أن عمومه عُرف بطريق العرف الشرعي، فالأصل في التشريع العموم، ولا يخصص به فرد إلا بدليل قوي يدل على الخصوصية.

ويدل على ثبوت العرف الشرعي آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويؤيد ذلك الإجماع على عموم حُكْم السرقة واللعان والظهار وغيرها مع أن سببها كان خاصّاً.

قال الطوفي: «أكثر أحكام الشرع العامة وردت لأسباب خاصة؛ كورود

(١) التسهيل ٣/ ٣٣.
(٢) ينظر: الإبهاج ٢/ ١٨٥، إرشاد الفحول ١/ ٣٣٢.
(٣) الموافقات ٤/ ٤٦.
(٤) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٩.

حكم الظهار في أوس بن الصامت، وحكم اللعان في شأن هلال بن أمية، فلو كان السبب الخاص يقتضي اختصاص العام به، لما عمت هذه الأحكام، لكنه باطل بالإجماع»[١].

ومن أنكر عموم الخطاب الموجه لواحد من الأمة، قالوا: يلحق به غيره من المكلفين ممن حاله كحاله بطريق القياس.

فالخلاف بينهم: في أن عمومه بطريق النقل العرفي أو بطريق القياس.

والذي يظهر أن القول بالعموم أولى؛ لأن القائل به لا يحتاج إلى البحث عن علة الحكم وتحققها في بقية المكلفين، بخلاف من قال بالقياس، فإنه يحتاج إلى ذلك.

قال الشوكاني[٢]: «والحاصل في هذه المسألة على ما يقتضيه الحق، ويوجبه الإنصاف عدم التناول لغير المخاطب من حيث الصيغة، بل بالدليل الخارجي، وقد ثبت عن الصحابة فمن بعدهم الاستدلال بأقضيته ﷺ الخاصة بالواحد، أو الجماعة المخصوصة على ثبوت مثل ذلك لسائر الأمة، فكان هذا مع الأدلة الدالة على عموم الرسالة، وعلى استواء أقدام هذه الأمة في الأحكام الشرعية مفيداً لإلحاق غير ذلك المخاطب به في ذلك الحكم عند الإطلاق إلا أن يقوم الدليل الدال على اختصاصه بذلك»[٣].

وبهذا يظهر لي أن الأصل في نصوص الشرع العموم حتى ولو كان اللفظ خاصاً باللغة والوضع، حتى يأتي دليل على التخصيص والحصر[٤]، فإن المعتبر هو عرف الشارع وعادة القرآن، والله تعالى أعلم.

---

(١) شرح مختصر الروضة ٢/ ٥٠٣.

(٢) هو: محمد بن علي بن محمد الشوكاني أبو عبد الله الصنعاني، فقيه مجتهد، ومن تصانيفه: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، فتح القدير، مات سنة (١٢٥٠هـ)، له ترجمة في: البدر الطالع ٢/ ١٠٦، الأعلام ٦/ ٢٩٨.

(٣) إرشاد الفحول ١/ ٣٢٥.

(٤) أي: ببعض أفراد العام دون من يماثلهم بالصفة.

المبحث الثالث

انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب

وفيه ستة مطالب:

- **المطلب الأول: انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب.**
- **المطلب الثاني: انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم.**
- **المطلب الثالث: انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم.**
- **المطلب الرابع: انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة.**
- **المطلب الخامس: انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة.**
- **المطلب السادس: انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب.**

❐ تمهيد:

من عادات القرآن البيانية: انتقال الكلام ـ في السياق الواحد ـ من أسلوب إلى أسلوب آخر، وهذا مما تميز به القرآن، واختصت به لغة العرب، ونال عناية علماء التفسير والبلاغة في القديم والحديث[1].

وأبرز مثال على ذلك ما اصطلح عليه الجمهور بـ: أسلوب الالتفات،

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٢، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٧٧، الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٣/ ١٧، الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ١٦٣ ـ ١٦٤، المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨، الكشاف للزمخشري ١/ ٥٦، ١٢٠، ١٦٩، تفسير البيضاوي ١/ ٢١٥، ٢٦٨، ٣٢٥، الإكسير في علم التفسير للطوفي ١٥٣ ـ ١٥٦، الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ٧٢ ـ ٨٠، البحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٤١، ١٦٧، ٣٠٢، والدر المصون للسمين الحلبي ١/ ٤٥، ١٤٩، ٢٠٢، تفسير أبي السعود ١/ ١٢، ١٦، ١٢٧، روح المعاني للألوسي ١/ ٧٣، ٨٩، ٢٥٢، التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٠٩، ١١٦، ١٧٨، ١٨٠، وغيرها.

وحقيقته: انتقال الضمير من أحد طرق الكلام ـ التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة ـ إلى طريق آخر منها[١].

قال السيوطي: (هذا هو المشهور)[٢].

وهو كثير في كلام العرب نثراً ونظماً[٣].

وتوسع ابن الأثير في مصطلح الالتفات فأدخل فيه ـ إضافةً إلى الضمائر ـ الالتفات في الأفعال، والأعداد، وامتدح هذا الأسلوب بقوله: «وهذا النوع ـ الالتفات ـ من خلاصة علم البيان التي حولها يُدَنْدَن، وإليها تستند البلاغةِ، وعنها يُعَنعن، وحقيقته: مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشمالهِ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة، . . . ويسمى أيضاً: شجاعة العربية؛ وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات»[٤].

وقال ابن عاشور: «نرى من أفانين الكلام: الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني: شجاعة العربية[٥]؛ لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال»[٦].

وبغضِّ النظر عن المصطلح فإن انتقال أسلوب الكلام في القرآن من وجه

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٧٤، البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٤.
(٢) الإتقان ٢/ ١٨٤.
(٣) عَدَّهُ ابن فارس في فقه اللغة: من سنن العرب في حقائق الكلام ١٤٩.
(٤) المثل السائر ٢/ ٣.
(٥) وكذا سماه الطوفي في الإكسير ١٥٣.
(٦) التحرير والتنوير ١/ ١٠٩.

إلى آخر، من عادة القرآن الظاهرة، وقد ربطه البلاغيون ببلاغة العرب وعاداتهم وأساليبهم، ولهذا فهم يستكثرون منه؛ لكونه أجمل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأعظم للإصغاء إليه.

وأمثلته في كتاب الله تعالى لا تحصى، بل إن هذه الانتقالات في طرق الكلام ارتبطت بأساليب القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته، وهذا مما يُظهر أهمية دراسة هذه الأساليب ومعرفة أسرارها.

وفي هذا المبحث التركيز على عادة القرآن في تحولات الخطاب القرآني بين الأساليب الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، والقسمة العقلية تجمعها في ست صور، كلها تحققت في القرآن على تفاوت في كثرة ورودها، هو ما سيسطر في هذا المطلب وما يليه بإذن الله تعالى.

المطلب الأول

انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب

المراد به: أن يجري سياق الكلام على ضمير التكلم ثم يتحول إلى ضمير الخطاب، وتتمثل بلاغة هذا الأسلوب في حث السامع على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فَضْل عناية، وخصه بالمواجهة[1].

كقوله تعالى في حكاية مقالة الرجل المؤمن الذي كان يدعو قومه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ [يس].

فالالتفات في الآية: هو في انتقال الكلام من المتكلم في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إلى المخاطب وهو قوله: ﴿تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾.

فجاء على طريقة التكلم، ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾، ولو جاء الكلام على مقتضى السياق لكان: وإليه أرجع؛ ليتناسب مع المتكلم، ولكنه جاء على طريقة الالتفات، وفيه شدة تحذير لهم، وتنبيه إلى أنهم صائرون إلى الله وراجعون إليه، ولا يتأتى هذا لو قال: وإليه أرجع؛ لأن في الالتفات

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٥.

التنبيه برجوعهم إلى من يكفرون به، فيكون أبلغ تأثيراً بهم من التكلم عن النفس.

ولهذا أُخرج الكلام هنا في سياق مناصحة المتكلم لنفسه، وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريده لنفسه، ثم التفت إليهم لغرض تخويفهم ودعوتهم إلى الله(١).

قال الزركشي: «ومن فوائد الالتفات: التنبيه على ما حقُّ الكلام أن يكون وارداً عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس]، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، ثم لما انقضى غرضه من ذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضياً له، ثم ساقه هذا المساق، إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس: ٢٥]»(٢).

وقال الشوكاني: «ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أي: أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾، ولم يقل: وإليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس].

في هذه الآية التفات في قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، صيغة خطاب، وكان السياق بصيغة التكلم في قوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ﴾، وكان المقتضى لاستمرار المقطع على صيغة واحدة: ولكن أعبد الله الذي يتوفاني.

---

(١) ينظر: الإتقان ٢/ ١٨٤.
(٢) البرهان ٣/ ٣٢٨.
(٣) فتح القدير ٤/ ٥١٨، وينظر: روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

قال الرازي: «فإن قيل: ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصيغة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ قلنا: فيه وجوه:

الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً، ثم يتوفاكم ثانياً، ثم يعيدكم ثالثاً، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مراراً وأطواراً، فههنا اكتُفي بذكر التوفي منها لكونه منبهاً على البواقي.

الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.

الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس].

فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم، قال ههنا: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وهو إشارة إلى ما قرره وبيَّنه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وإبقائي»[1].

ففي هذا الالتفات التهديد والوعيد للمشركين.

قال أبو السعود: «وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقاً بهم ما لا يخفى من التهديد»[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

ففي هذه الآيات انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٣٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٩، وينظر: فتح القدير ٢/ ٤٧٧.

وفيها انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

وفيها كذلك انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

ففي هذه الآيات تردد الأسلوب بين التكلم والخطاب، فالمتكلم هو الله ﷻ والمخاطب هو موسى عليه السلام.

والأوامر الشرعية تحمل معنى الخطاب والتكليف، اهتماماً بالمخاطب، وتفخيماً للمخاطب به.

قال الزركشي: «ومن الالتفات من التكلم إلى الخطاب: قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾، ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ وهو كثير»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية انتقال من أسلوب التكلم من الرب الخالق للجميع حينما ذكر أوصاف المؤمنين والكافرين والمنافقين، إلى أسلوب الخطاب اهتماماً بهم وبما سيأمرهم به.

قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة»[2].

وقال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إثر ما ذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم، وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق: مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق، ونعت كل فرقة منها بما

(١) البرهان ٣/٣١٦.
(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٢١٥.

لها من النعوت والأحوال، وبيَّن ما لهم من المصير والمآل، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء، وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي، وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ].

ففي قوله: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ التفات من التكلم إلى الخطاب، لما فيه من الإشعار بأن الربوبية تقتضي الرزق لعباده واستحقاقه للشكر[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح].

افتتحت السورة بالتكلم ثم تحول الأسلوب إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، وفيه تشريف للنبي ﷺ، وبيان لغاية الفتح.

قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: لنغفر لك؛ تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى، ولهذا علق به النصر، فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح]»[(٣)].

وقال أبو السعود: «وقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ غاية للفتح؛ من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى، بمكابدة مشاق الحروب، واقتحام موارد الخطوب، والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر، مترتبة على صفة من صفاته تعالى»[(٤)].

وبعد هذا؛ فانتقال الكلام من أسلوب التكلم إلى أسلوب الخطاب، كثير

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٥٨.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٦.
(٣) البرهان ٣/ ٣١٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠٤.

في القرآن، وفيه التأثير على السامع إما من جهة تشريفه أو تنبيهه أو تخويفه أو غير ذلك، وفيه الإشارة إلى أهمية الموضوع المخَاطَبِ فيه، فيُلتَفت إلى الأسلوب المناسبِ له، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم

والمراد به: أن يكون السياق على أسلوب الخطاب، ثم ينتقل إلى أسلوب التكلم.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى ما يأتي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أسلوب خطاب، ثم تحول إلى أسلوب تكلم في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾، خاطب الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكراً واستدراجاً وعقوبة لكم، ففي الآية تهديد من الله تعالى للمشركين على مكرهم، ثم جاء الالتفات إلى التكلم فقال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا، ثم نحاسبكم على ذلك.

قال أبو حيان: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات، إذ لم يأت: إنّ رسله»(١).

وقال السمين: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفاتٌ أيضاً، إذ لو جَرَى على قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، لقيل: إنَّ رسله»(٢).

وقال الألوسي: «وفي: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات، إذ لو أُجرِي على قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، لقيل: إن رسله، فلا إشكال فيه من حيث أنه لا وجه

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٠، وينظر: تفسير اللباب ١٠/ ٢٨٧.
(٢) الدر المصون ٨/ ١٤٣.

لأمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم: إن رسلنا إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام»[١].

وقال الزركشي ضمن أقسام الالتفات: «من الخطاب إلى التكلم: كقوله: ﴿...فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه] وهذا إنما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحداً فأما من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به.

ويمكن أن يمثل بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ على أنه سبحانه نَزَّل نفسه منزلة المخاطب»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أيها القوم من ذنوبكم، بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام، وبَخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، يقول: ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾، يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة ﴿وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يودُّه ويحبُّه»[٣].

فأول الآية جاء بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ثم انتقل في آخرها لأسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: إن ربكم، لموافقة سابِقِه، ولكن التفت من الخطاب إلى التكلم، وفيه الإشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن ربكم وربي واحد، وهو المستحق للعبادة وحده، وفي ضمير الخطاب ترغيب لهم بالتوبة حيث أضاف كلمة رب إلى خطابهم، ليحرك ما في نفوسهم، ويقربهم إلى الله، والانتقال

(١) روح المعاني ١١/ ٩٥.
(٢) البرهان ٣/ ٣١٧.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٦.

لخطاب التكلم؛ لبيان ما يعهده نبي الله شعيب عليه السلام في نفسه، وأنه موقن برحمة ربه، وصادق في دعوته، والله أعلم.

قال البقاعي: «﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، أي: اطلبوا ستر المحسن إليكم، ونبَّه على مقدار التوبة بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ ثم علل ذلك مرغباً في الإقبال عليه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾؛ أي: المختص لي بما ترون من الإحسان ديناً ودنياً ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: بليغ الإكرام لمن يرجع إليه بأن يحفظه على ما يرضاه، بليغ التحبب إليه»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه].

في الآية التفات من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، إلى أسلوب التكلم في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾، وفيه حثهم وترغيبهم بعبادة الله تعالى، وترك الشرك به سبحانه.

قال الطبري: «يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي يعم جميع الخلق نعمه، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له»[(٢)].

وقال مكي: «ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: إن معبودكم الذي يستحق العبادة هو الرحمٰن، فاتبعوني ولا تعبدوا غيره، وأطيعوا أمري في ترك عبادة العجل»[(٣)].

وفي هذا الالتفات إشارة إلى تلطُّف هارون عليه السلام مع قومه وشفقته عليهم.

قال الرازي: «اعلم أن هارون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق»[(٤)].

وقال أيضاً: «واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ثم دعاهم

---

(١) نظم الدرر ٣/ ٥٦٩.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥٨.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٧/ ٤٦٨٧.
(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٩١.

إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ثم دعاها ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِ﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ وهذا هو الترتيب الجيد»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس].

فالآية الأولى بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، ثم انتقل إلى التكلم في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وقد كان مقتضى السياق أن يكون: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؛ بدليل آخر الآية حيث التفت أُخرى إلى الخطاب، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

وفي التفات هذه الآية من أسلوب الخطاب إلى أسلوب التكلم تلطف من الرجل المؤمن بالمخاطبين، فأورد الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم، وفيه إظهار كمال النصح لهم حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه[(٢)].

قال السمين: «قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون، ولكنه صَرَفَ الكلامَ عنهم، ليكون الكلامُ أسرعَ قبولاً، ولذلك جاء قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ دون: وإليه أرجعُ»[(٣)].

وفي قوله جل وعلا في الآية بعدها على لسانه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس]، ولم يقل: بربي ما يؤكد هذا الحرص.

قال ابن الأثير: «وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٢.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ١٣، تفسير البيضاوي ٤/ ٤٣٠، البرهان ٣/ ٣٢٨، تفسير أبي السعود ٧/ ١٦٤.
(٣) الدر المصون ١٢/ ١٥٤.

المساق إلى أن قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس] فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمر عليها في آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

فأول الآية أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم فقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

فالله جل وعلا يخاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وأعقبه مباشرة بأسلوب التكلم بقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فقل لهم إني قريب، ولكن الله تولى الجواب، فهو قريب جل وعلا من داعيه بالإجابة، وفيه إشارة إلى فضل الدعاء، والحث عليه، وأن الله وحده هو المجيب لمن دعاه.

قال أبو حيان: «وهو من باب الالتفات»[(٢)].

وقال الزركشي: «فإن قيل: كيف جاء ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن بقل نحو: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ونظائره.

قيل: حُذِفت للإشارة إلى إن العبد في حالة الدعاء مستغن عن الواسطة، وهو دليل على أنه أشرف المقامات، فإن الله سبحانه لم يجعل بينه وبين الداعي واسطة، وفي غير حالة الدعاء تجيء الواسطة»[(٣)].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ في تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾؛

(١) المثل السائر ٢/ ٧.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٥٢.
(٣) البرهان ٤/ ٥٤.

أي: فقل لهم: إني قريب»[١].

وقال السعدي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ قُرْب يقتضي إلطَافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم»[٢].

وجمعاً لما مضى أقول:

إن من العلماء من قال: الالتفات من الخطاب إلى التكلم لم يقع في القرآن[٣]؛ لأن شرط الالتفات أن يكون المرادُ به واحداً.

والسبب في ذلك:

١ ـ ما بين الأسلوبين من التقارب الشديد، فلا يتميز الخطاب والتكلم في السياق الواحد.

٢ ـ أو التباعد التام، بحيث يكون الملتَفَتُ إليه غير الملتَفَت عنه.

ومن جهة أخرى فلا يخلو سياق من أسلوب الخطاب والتكلم، وعليه فلا بد من الدقَّة في استنباط الانتقال بين هذين الأسلوبين، والتماس الحِكَم والأسرار من الانتقال بينهما في أسلوب القرآن.

وما سبق من أمثلة هي نماذج عدَّها العلماء: انتقالٌ في الأسلوب من الخطاب إلى التكلم، وهي دليلٌ على وقوعه في القرآن.

وفيها زيادة العناية بالملتَفت إليه، وشد ذهن السامع، وكمال البلاغة والإعجاز في كتاب الله الكريم، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم

والمراد به: أن يكون السياق على أسلوب الغيبة، ثم ينتقل إلى أسلوب التكلم، وهو كثير في كتاب الله تعالى، اعتنى به العلماء، وبينوا لطائفه، مما

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٠.
(٢) تفسير السعدي ٣٨٤.
(٣) كالسيوطي في الإتقان ٢/ ١٨٥.

يدل على أهميته وكثرة فوائده[١].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

بيَّن تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل العهد المؤكد الغليظ، وبعث منهم اثني عشر رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أُمِرُوا به[٢].

وفي الآية الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم فحول الكلام من الغيبة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

قال أبو السعود: «والالتفات في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للجري على سنن الكبرياء، أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام»[٣].

وقال القاسمي: «وفي الالتفات تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد»[٤].

وقال ابن عاشور: «والعدول عن طريق الغيبة من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، إلى طريق التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ التفات»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

نزه تعالى نفسه، وعظمها لقدرته على ما لا يقدر عليه سواه، ومن ذلك إسراؤه بنبيه ﷺ، وعبَّر بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ فأضافه الله تعالى لنفسه تشريفاً، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ منكراً للإشارة إلى تقليل المدة، والإسراء ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٩.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ٢٢٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ١٤، وينظر: روح المعاني ٦/ ٨٥.
(٤) تفسير القاسمي ٤/ ٨٨.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ١٤٠.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾ الذي هو أشرف المساجد ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء[١].

وجاءت هذه المقدمة بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم في قوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، وفيه إشارة إلى تعظيم البركات التي اختص بها المسجد الأقصى.

قال أبو حيان: «وهو التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم»[٢].

وقال أبو السعود: «والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات»[٣].

ثم التفت مرة أخرى من أسلوب التكلم في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ما رأى من الأنبياء وآثارهم[٤]، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾، لينبه بالسميع أنه المجيب لدعائه، وبالبصير أنه الحافظ له في ظلمة الليل[٥].

قال الزمخشري: «ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى به، ثم: باركنا ليريه، على قراءة الحسن، ثم: من آياتنا، ثم: إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة»[٦].

وقال الرازي: «اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية، وفيها انتقل من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ لأن قوله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ فيه ذكر الله على سبيل الغيبة، وقوله: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ يدل على الغيبة، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: ٢] إلخ، يدل على الحضور، وانتقال الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى:

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٤٥٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٥.
(٤) ينظر: معني القرآن للنحاس ٤/ ١١٩.
(٥) ينظر: تفسير البغوي ٥/ ٥٨.
(٦) الكشاف ٢/ ٦٠٦، وينظر: الإتقان ٢/ ١٨٦.

صنعة الالتفات»[١].

ولو جاء السياق على أسلوب واحد لكان بهذه الضمائر: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير.

قال الزركشي: «وقد تكرَّر الالتفات في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] في أربعة مواضع»[٢].

ففي هذا الالتفات: مراعاةُ مناسبةِ المقام من التعظيم، وترابطٌ دقيق أثناء انتقالها من أسلوب إلى أسلوب، وهذا ما أعجز أهل البلاغة والفصاحة.

قال ابن الأثير: «فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعانٍ اختصت بها، يعرفها من عرفها ويجهلها من جهلها»[٣].

وقال الألوسي: «وصَرْفُ الكلام من الغيبة التي في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى صيغة المتكلم المعظم في: باركنا ونريه آياتنا لتعظيم البركات والآيات؛ لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير، تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه، كما قيل: إنما يفعل العظيمُ العظيمَ، وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة، وهي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ يدل على مسيره ﷺ دون أن يراه أحد، فهو بالغيبة أنسب، وقوله تعالى: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دل على إنزال البركات؛ فيناسب تعظيم المنزل، والتعبير بضمير العظمة متكفل بذلك، وقوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ يدل على قربه ولطفه به فيناسب التكلم معه، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَا﴾ عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه..»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَ‌ٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٢.
(٢) البرهان ٣/ ٣٢٢.
(٣) المثل السائر ٢/ ٦.
(٤) روح المعاني ١٥/ ١٣ بتصرف يسير.

فالالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ولم يقل: فارهبوه.

وفي هذا الالتفات: التنبيه على أهمية المتكلم عنه، والحث على الإصغاء أكثر، وتربيةُ المهابة في النفوس، والمبالغة في التخويف والترهيب، فتوجيهها للحاضر أبلغ من الغائب.

قال الزمخشري: «﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم»(١).

وقال الألوسي: «لأن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المتضمنة للعظمة والقدرة التامة على الانتقام»(٢).

ومن فوائد الالتفات هنا: تربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب.

قال ابن عطية: «والأمر بالرهبة يتضمن معنى التهديد»(٣).

وقال البيضاوي: «نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير»(٤).

وقال أبو السعود: «﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب؛ ولذلك قدم وكرر الفعل؛ أي: إن كنتم راهبين شيئاً فإياي ارهبوا»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٍ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرًا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

قال أبو حيان: «﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ التفات من غيبة إلى تكلم بنون العظمة»(٦).

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٠، وينظر: التسهيل ٢/ ٧٤.
(٢) روح المعاني ١٤/ ٣٣٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٦ بتصرف.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٠٤.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١١٩.
(٦) البحر المحيط ٤/ ١٩٢.

وفي هذا: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، إلى التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، إظهار قدرة الله تعالى وعظمته، وأن هذه النعم لا يقدر عليها غيره، وفيه إظهار كمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله.

قال الرازي: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ يسمى التفاتاً، ويعد ذلك من الفصاحة»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه].

الالتفات هنا بين قوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ وهو يختص بالغيبة، وبين قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وهو يختص بالمتكلم، وفيه إثبات كمال القدرة لله تعالى وحده.

قال أبو حيان: «فيكون قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفاتاً من الضمير الغائب، وسلك إلى ضمير المتكلم لمعظم نفسه»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ [طه:٥٣]»؛ أي: بذلك الماء، وهو عطف على: أنزل داخل تحت الحكاية، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن، تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠]»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر].

هنا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، جاء على أسلوب الغيبة، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم فقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقول:

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٨٨.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢١.

فساقه، ولكن في هذا الالتفات إشعار بعظمة الله جل وعلا القادر على كل شيء.

وقد جاء ذلك مفصلاً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

فالالتفات هنا من قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ وهو أسلوب غيبة، إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وهو أسلوب المتكلم؛ ليدل أن القادر على هذه الآيات هو الله جل وعلا دون سواه.

قال السمين: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ هذا التفاتٌ من الغَيْبةِ إلى التكلم، وإنما كان ذلك لأن المِنَّةَ بالإخراج أبلغُ من إنزال الماء»(١).

وقال البقاعي: «﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: التي لا يصعد إليها الماء، ولمَّا كان أمراً فائتاً لقوى العقول، نبَّه عليه بالالتفات إلى مظهر العظمة فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾؛ أي: بما لنا من العظمة»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة»(٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصّلت].

ففي الآية التفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، وما قبلها من خلق السماوات والأرض، إلى أسلوب تكلم في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾، فهي ظاهرة للعباد، وفيه إبراز

(١) الدر المصون ١٢/ ١٣٠.
(٢) نظم الدرر ٦/ ٢٢٠.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.